

الفنون الجميلة

والرفعة ؟ أو بمعنى آخر : هل هناك فنون أرق وأرفع من غيرها ؟ وإن كان الأمر كذلك ، فملى أى أساس يمكن تصنيفها وترتيبها إلى فنون راقية رفيعة ، وأخرى أقل منها ؟

لقد رأينا أن الفن هو الإنتاج الحر للجمال ، ورأينا أيضاً أنه لا بد من التعبير عن فكرة ما فى الفن ؛ ففانون التعبير هو أهم قانون عام مشترك بين كل الفنون ، وعليه يجب أن يقوم التصنيف . فالفن الذى يكون أكثر تعبيراً وأغنى فى وسائل تعبيره من غيره يكون هو الأرق . وليست الفنون على درجة واحدة من تلك الحرية فى التعبير ، فنحن نجد مثلاً أن حرية التعبير أقل ما تكون فى فن العمارة ، والفنان المعماري مقيد إلى أبعد حد ؛ بينما تتمتع الفنون الأخرى بحرية فى التعبير أوسع من ذلك ، مع تفاوت فيها بينها . كذلك تختلف قوة تعبير كل فن عن الآخر إزاء شئ واحد بالذات ؛ فالموسيقى مثلاً يمكنها أن تصور لنا منظر عاصفة عنيفة تصويراً أبلغ وأعمق مما يصوره لنا النقش مثلاً ، فهي تعبر عنها أحسن تعبير منه ، وتثير فينا من العواطف والوجدانات ما لا يثيره هو فينا إن تعرض للتعبير عن ذلك المنظر . كذلك يعجز النقش عن أن يساوى الشعر فى قوة تعبيره وعمق تصويره ، فهناك آثار شعرية عظيمة نمج بها كل الإعجاب ، وتثير فينا الماطفة الجمالية كأقوى ما تكون ، ولكن النقش - أو غيره - يعجز عن تصويرها فى مثل روعة تصوير الشعر لها . فمثلاً صور لنا فرجيل فى قصيدته le renommé «سورة رمزية لمسخ عظيم هائل ، له مائة عين ومائة فم ، تعكس قدماء الأرض ، ويبلغ رأسه عنان السماء » فأبدع فى تصويره كل الإبداع ، وأثار إعجاب كل من قرأها . هذه الصورة الرمزية ما ذا تثير فينا لو فرض أن حاول النقش أن يحققها ويعبر عنها ؟ وأغلب الظن أنه سيخرجها لنا صورة غريبة تثير فينا الضحك وتبعث على الهزؤ والسخرية^(١) .

وقد أجمعت الآراء على القول بأن الشعر هو أرق الفنون الجميلة ، فهو يحتل المكان الأول بين سلسلة الفنون لأنه أقواها على إلحاح النفس ، وتحرير الخيلة ، والصمود للإنسان إلى أرق الأفكار وأسمائها . ولا يكتفى الشعر بالتعبير عن الصور الحسية وعن العواطف الجياشة وتصويرها كما تفعل سائر الفنون الأخرى ، بل يمتاز عنها جميعاً بميزة أخرى هي أنه يمكن أن يعبر عن المعاني

الفن ترتيب أجزاء متفرقة ترتيباً اختيارياً حسب فكرة معينة لتؤدى إلى غاية معلومة ، هي أن يُخلق من تلك الأجزاء كلاً واحداً ، أو خلقاً جديداً يثير فى النفس عاطفة الجمال . فهو إذن إنتاج حر للجمال ، لا الجمال الواقى بحسب ، بل مزيج من الجمال الواقى والجمال المثالى . فلا بد من أن توجد فكرة مثالية عند الفنان يحققها ويعبر عنها بمساعدة الواقع . ويتخذ الفن فى تعبيراته عن تلك الفكرة أشكالاً مختلفة هي ما نسميه بالفنون الجميلة Les beaux-arts . فالفنون الجميلة إذن ، هي مختلف حالات الانفعالات الجمالية التى يتفعل بها الفنان إزاء أشياء معينة ، فيحاول أن يعكسها ويعبر عنها ، لكي يتذوقها غيره ، فيتفعل بها كما انفعل هو .

والفن فى تعبيره عن هذه الفكرة يخاطب الحواس ، لا الحواس كلها ، بل هو فى الواقع يخاطب حاستين منها فقط هما : السمع والبصر ؛ وعلى ذلك تنقسم الفنون الجميلة إلى مجموعتين : (أ) ما يخاطب السمع وهي : الموسيقى : (سواء أكانت

موسيقى صامتة ، أم بصاحبها غناء مفرداً وجوقة) والشعر (ب) ما يخاطب البصر وهي : النحت والمهارة والنقش^(٢)

ولكن ، هل الفنون جميعها على درجة واحدة من السمو

(١) هناك رأي آخر يقول بوجود مجموعة ثالثة من الفنون تخاطب الحاستين ما « السمع والبصر » مثل الرقص والمطابة . ولكن الواقع أن الرقص والمطابة ليسا فى ذاتهما فنين بمعنى الكلمة . فالرقص لم يعتبر فناً إلا لمصاحبة للموسيقى له ، والموسيقى من أرفع الفنون الجميلة ، وهي فى الحقيقة الجزء الفنى فى الرقص . أما حركات الرقص المنسقة المتزنة نفسها فليست فناً . ويتوسط فى الفن أن يكون نزيهاً بمعنى ألا تكون له غاية أخرى غير التأثير الجمالى . وقانون الفن هو « الفن للفن » . وذلك ما لا نجد فى المطابة . فليس القصد من المطابة إيجاد ذلك التأثير الجمالى أو توليد عاطفة الجمال فقط ، بل إن لها غاية أخرى هي إقناع المستمعين بما يرضى له الخطيب فى خطبته ، ومن هنا لا تعتبر الخطابة فناً . وما يصدق على الخطابة يصدق على البلاغة ، وقد قيل إنها فن . والبلاغة فن لو أريد بها مجرد القول الحسن - كما يقول كنت - ولكن ليست هذه غايتها . نعم ، إنها تولد فى الإنسان الماطفة الجمالية ؛ ولكن ذلك لا يهم لأنها غرضها الأساسى هو استخدامها للاقناع وغير ذلك فهي ليست فناً . أنظر ق ذلك :

(1) Kant : Critique du jugement. trad. Barmi. P. 287

(2) V. Cousin : Du vrai, du beau et du bien. P. 191 et suiv.

(3) H. Marlon : Leçon de psychologie. P. 429.

المجردة ، مثل فكرة « الله » وفكرة « الوطن » وغيرها مما يعجز عنه باقي الفنون ، وذلك لأن أداة الشعر الكلام ، ويمكن أن يؤدي الإنسان بالكلام ما لا يؤديه بغيره^(١) . فكلمة « الله » أو « الوطن » وحدها تحمل من المعاني ، وتثير من العواطف والانفعالات والخواطر ما يقصر عن حمله وإنارته أى أداة أخرى من أدوات التعبير في الفن

وبأخذ « مجل » على الشعر أنه لا يعرض علينا الشيء المراد تصويره مرة واحدة ، أى أنه لا يعرض علينا كل الخطوط والملاحج الجمالية المختلفة التي يصفها بحيث نراها كلها لأول وهلة بعضها بجانب بعض مثلما نرى في النقش مثلاً ، إذ يكفي أن ننظر إلى لوحة من اللوحات فنرى كل الملاحج المعبر عنها دفعة واحدة . فالشعر يعرض علينا الشيء الذي يصوره شيئاً فشيئاً على دفعات ، وهذا ناتج من طبيعة أداة الكلام . ففي كل بيت مثلاً يعرض علينا جزءاً من تلك الملاحج ، ولا تكمل الصورة إلا بكال القصيدة . فهو من هذه الناحية إذن أقل منزلة من النقش . ولئن كان هذا عيباً في الشعر فإنه من جهة أخرى ميزة يمتاز بها على غيره ، وذلك حين يعرض لبعض المشاهد التي لا بد فيها من التسلسل والتتابع حتى تستكمل ظهورها . فالنقش في الحقيقة يمثل حالة معينة وفي وقت بالذات ولا يمكن أن يعرض للحالات التي تتغير وتتابع . فمثلاً يمكن للشعر أن يعرض لوصف عاصفة هوجاء عنيفة فيصور أولاً منظر البحر قبل العاصفة وقد هدأت المياه وصفا الجو وسطعت الشمس ، وقد أخذت سفينة صغيرة تنهائى في رفق على صفحة الماء ، ثم إذا بالجو يتلبد بالغيوم فجأة وتهيج الأمواج وتضطرب وتصفر الرياح وتتقاذف السفينة حتى تغلبها على أسرها وتدفع بها إلى صخرة عظيمة فتنتفح في جانب السفينة تفرة كبيرة تدخل منها المياه ، وتأخذ السفينة في الغوص والركاب يصرخون ويجرون هنا وهناك وقد تملكهم اليأس والفرع ، ثم طنى البحر على السفينة فابتلعها بمن عليها . كل ذلك يصوره لنا الشعر بسهولة في قصيدة واحدة ولكن يعجز عنه النقش في لوحة واحدة ، فهو لا يمكنه إلا أن يعبر عن حالة واحدة فقط من تلك الحالات المتباعدة

وهناك فن آخر لا يقل عن الشعر رفعة وسمواً وهو الموسيقى فهي من أقوى الفنون تأثيراً في النفوس وإيقاظاً للعواطف

والهابة للوجدان ، ويمكنها أن تحمل الروح وتتجاوز بها العالم الواقعي إلى اللانهاية . فنصير اللانهاية واضح جداً فيها ، ولعلها في ذلك تسبق الشعر ، وقد كادت تفوقه لولا ما فيها من غموض وإبهام ؛ فتعبيراتها غير محددة تمام التحديد ، كما نرى في النحت مثلاً ، فهو على العكس منها تماماً يحدد موضوع تعبيره بخطوط واضحة لا يمكن أن نخطئها ، مما يجعله لا يبعث على الخيال ولا يحمل الروح إلى اللانهاية . فجمال الموسيقى ، وميزتها الكبرى تتجلى في قدرتها على العبور بالروح إلى اللانهاية ، مما جعل بعض الناس يقرنها بالدين لأنهما يخاطبان القلب والعواطف ويسموان بالروح عن عالم الواقع . ولعل هذا هو السر في أن السجيين يصحبون صلواتهم الكنيسية بالموسيقى وتأثير الموسيقى في الحقيقة أقوى من تأثير الشعر ، فهناك صلة وثيقة بين أنغام الموسيقى والقلب ، بحيث يمكن للموسيقى البارع أن يلعب بأفئدة الناس كيفما شاء ، إن شاء أضحكهم وإن شاء أبكاهم^(٢) . وعلى العموم فهناك صلة كبيرة بين الشعر والموسيقى . فالشعر يدخل في الموسيقى على صورة غناء ، فيحدد من تعبيراتها وتصوراتها ، وهو بذلك يقتل ما فيها من لانهاية . كذلك الشعر موسيقى الألفاظ ، يحس الإنسان فيه بأنغام موسيقية غير خافية ، قد تتولد على الأكثر من تكرار بعض حروف معينة وتلازمها^(٣)

والخلاصة من كل ما سبق أنه ما دامت حرية التعبير وقوته وعمقه وغناؤه هي أساس ترتيب درجات سمو الفنون وراقيها ، فإنه يمكن تبعاً لذلك ، اعتبار الشعر أرق أنواع الفنون الجليلة ، وتليه في ذلك الموسيقى ، وهي خليفة بأن تسمو عليه لولا غموضها وإبهامها ، وإن كان ذلك يجعلها تمتاز عن غيرها باللانهاية . وبلى الموسيقى النقش ، فهو يكاد يجمع بين قوة تأثير الموسيقى من ناحية وبين تحديد النحت من ناحية أخرى ، فهو أكثر تحديداً وإيضاحاً من الموسيقى ، وأكثر تأثيراً من النحت . وبلى ذلك النحت وهو لا يكاد يبعث على التخيل بشدة ما فيه من التحديد ؛ وأخيراً المهارة وهي أقل الفنون جميعاً في حرية التعبير وعمقه

أحمد أبو زيد

كلية الآداب - جامعة فاروق الأول

(١) كما ذكر عن أحد فلاسفة الاسلام وهو الفارابي . أنه عزف على آلة موسيقية صنعها هو نفسه فأضحك السامعين ، ثم عزف نأبكاهم ، ثم عزف فأنامهم (٢) من ذلك قول بشار : لم يطل ليلى ولكن لم أتم وننى عنى الكرى طيف ألم فهناك موسيقى تولدت من تكرار اللام والميم والنون